## أصول جامعة نافعة في

# البلاء والابتلاء

لابن قيم الجوزية

أعده وضبطه وعلق عليه

أبو محمد أشرف بن عبد المقصود



## أصول جامعة نافعة في البلاء والابتلاء

# لابن قيم الجوزية

**يتناول هذا الكتاب الحديث عن**
**أصول جامعة نافعة في البلاء والابتلاء، حيث إن ما يصيب المؤمنين من الشرور والمحن والأذى دون ما يصيب الكفار، والواقع شاهد بذلك. وكذلك ما يصيب الأبرار في هذه الدنيا دون ما يصيب الفجار والفساق والظلمة بكثير. وأن ما يصيب المؤمنين في الله تعالى مقرون بالرضا والاحتساب، فإن فاتهم الرضا فمعولهم على الصبر، وعلى الاحتساب، وذلك يخفف عنهم ثقل البلاء، ومؤنته، فإنهم كلما شاهدوا العوض هان عليهم تحمل المشاق والبلاء، والكفار لا رضا عندهم ولا احتساب، وإن صبروا فكصبر البهائم، وإن المؤمن إذا أوذي في الله فإنه محمول عنه بحسب طاعته وإخلاصه ووجود حقائق الإيمان في قلبه، حتى يحمل عنه من الأذى ما لو كان شىء منه على غيره لعجز عن حمله، وهذا من دفع الله عن عبده المؤمن، فإنه يدفع عنه كثيرًا من البلاء، وإذا كان لابد له من شىء منه دفع عنه ثقله ومؤنته ومشقته وتبعته، وإن المحبة كلما تمكنت في القلب ورسخت فيه، كان أذى المحب في رضى محبوبه مستحلى غير مسخوط، والمحبوبون يفتخرون عند أحبابهم، وإن ابتلاء المؤمن كالدواء له يستخرج منه الأدواء التى لو بقيت فيه أهلكته، أو نقصت ثوابه، وأنزلت درجته، فيستخرج الابتلاء والامتحان منه تلك الأدواء ويستعد به لتمام الأجر، وعلو المنزلة، ومعلوم أن وجود هذا خير للمؤمن من عدمه.**

**عادل محمد**

## تقديم

**بسم الله الرحمن الرحيم**
**قال الإمام العلامة أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبى بكر الشهير بابن قيم الجوزية بعد كلام له سبق في ( إغاثة اللهفان فى مصايد الشيطان )[*] : وتمام الكلام فى هذا المقام العظيم يتبين بأصول نافعة جامعة .**

## الأصل الأول

**- أن ما يصيب المؤمنين من الشرور والمحن والأذى دون ما يصيب الكفار ، والواقع شاهد بذلك ، وكذلك ما يصيب الأبرار فى هذه الدنيا دون ما يصيب الفجار والفساق والظلمة بكثير**

---

**(*) اعتمدت عل طبعة السنة المحمدية بتحقيق الشيخ محمد حامد الفقى .**

## الأصل الثانى

**- أن ما يصيب المؤمنين فى الله تعالى مقرون بالرضا والاحتساب ، فإن فاتهم الرضا فمعولهم على الصبر ، وعلى الإحتساب ، وذلك يخفف عنهم ثقل البلاء ، ومؤنته ، فإنهم كلما شاهدوا العوض هان عليهم نحمل المشاق والبلاء ، والكفار لا رضا عندهم ولا احتساب ، وإن صبروا فكصبر البهائم .**
**وقد نبه الله تعالى عل ذلك بقوله : (وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ الله مَا**

لَا يَرْجُونَ وَكَانَ الله عَلِيمًا حَكِيمًا ( النساء: ١٠٤) .

---

(١) والمعنى ٢ قال ابن القيم فى زاد المعاد ( ٣ - ٢٢٢) : ( فما بالكم تهلون وتضعفون عند الفرح والألم ، فقد أصابهم ذلك في سبيل الشيطان ، وأنتم أصبتم في سبيل وابتغاء مرضاتى ) .

وراجع الكلام على حكمة الابتلاء بما لا تراه فى مكان اخر فى زاد المعاد ( ١٢٨/٣ : ٢٤٠ ) فى فصل ذكر بعض الحكم والغايات المحمودة التى كانت فى وقعة أحد .

## الأصل الثالث

- إن المؤمن إذا أوذى فى الله فإنه محمول عنه بحسب طاعته وإخلاصه ووجود حقائق الإيمان فى قلبه ، حتى يحمل عنه من الأذى ما لو كان شيء منه على غيره لعجز عن حمله ، وهذا من دفع الله عن عبده المؤمن ، فإنه يدفع عنه كثيرا من البلاء ، وإذا كان لابد له من شيء منه دفع عنه ثقله ومؤنته ومشقته وتبعته .

## الأصل الرابع

- إن المحبة كلما تمكنت فى القلب ورسخت فيه ، كان أذى المحب فى رضى محبوبه مستحلى غير مسخوط ، والمحبوبون يفتخرون عند أحبابهم ، بذلك حتى قال قائلهم :

لئن ساءنى أن نلتنى بمساءة     سرنى أني خطرت ببالك

فما الظن بمحبة المحبوب الأعلى ، الذى لحبيبه رحمة منه له وإحسان إليه .

## الأصل الخامس

- أن ما يصيب الكافر والفاجر والمنافق من العز والنصر والجاه ، دون ما يحصل للمؤمنين بكثير ، بل باطن ذلك ذل وكسر وهوان ، وإن كان فى الظاهر خلافه .

قال الحسن - رحمه الله -: (إنهم وإن هملجت بهم البراذين وطقطفت بهم البغال إن ذل المعصية لفى قلوبهم أبَى الله إلا أن يذل من عصاه) [1] .

(١) وأورده ابن القيم فى روضة المحبين أيضا ص ١١٣ ، وابن رجب فى الحكم الجديرة بالاذاعة ص ٣٦ . هملجت : مشية الهملجة حسن سير الدابة فى سرعة .

## الأصل السادس

أن ابتلاء المؤمن كالدواء له يستخرج منه الأدواء التى لو بقيت فيه أهلكته ، أو نقصت ثوابه ، وأنزلت درجته ، فيستخرج الابتلاء والامتحان منه تلك الأدواء ويستعد به لتمام الأجر ، وعلو المنزلة ، ومعلوم أن وجود هذا خير للمؤمن من عدمه ، كما قال النبى صلى الله عليه واله وسلم : والذى نفسى بيده لا يقضى الله للمؤمن قضاء الا كان خيرا له ، وليس ذلك الا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر ، فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيرا له [1]

فهذا الابتلاء والامتحان من تمام نصره ، وعزه وعافيته ، ولهذا كان أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الأقرب إليهم فالأقرب ، يبتلى المرء على حسب دينه ، فإن كان فى دينه صلابة شدد عليه البلاء ، وإن كان فى دينه رقة خفف عنه ، ولا يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشى على وجه الأرض وليس عليه خطيئة .

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٩٩) (64) من حديث صهيب بلفظ (عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ...) الحديث وهو فى المسند ( ١٨٤/٣، ٢٤/٥) من حديث أنس مختصرا بلفظ : عجبا للمؤمن لا يقضى الله له شيئا إلا كان خيرا له ، وإسناده

## الأصل السابع

- أن ما يصيب المؤمن فى هذه الدار من إدالة عدوه عليه ، وغلبته له ، وأذاه له فى بعض الأحيان : أمر لازم ، لابد منه ،

وهو كالحر الشديد ، واليرد الشديد ، والامراض والهموم والغموم ، فهذا أمر لازم للطبيعة والنشأة الانسانية فى هذه الدار ، حتى للأطفال ، والبهائم ، لما اقتضته حكمة أحكم الحاكمين ، فلو تجرد الخير فى هذا العالم عن الشر ، والنفع عن الضر ، واللذة عن الألم ، لكان ذلك عالما غير هذا ، ونشاة أخرى غير هذه النشأة ، وكانت تفوت الحكمة التى مزج لأجلها بين الخير والشر ، والألم واللذة والنافع والضار ، وإنما يكون تخليص هذا من هذا ، وتمييزه فى دار أخرى ، غير هذه الدار ، كما قال تعالى : (ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون) الأنفال : ٣٧ .

## الأصل الثامن

- أن ابتلاء المؤمنين بغلبة عدوهم لهم، وقهرهم ، وكسرهم لهم أحيانا فيه حكمة عظيمة ، لا يعلمها على التفضييل إلا الله عز وجل . فمنها : استخراج عبوديتهم وذلهم لله ، وانكسارهم له ، وافتقارهم إليه ، وسؤاله نصرهم على أعدائهم ، ولو كانوا دائما منصورين قاهرين غالبين لبطروا وأشروا . ولو كانوا دائما مقهورين مغلوبين منصورا عليهم عدوهم لما قامت للدين قائمة ، ولا كانت للحى دولة فاقتضت حكمة أحكم الحاكمين أن صرفهم بين غلبهم تارة ، وكونهم مغلوبين تارة . فإذا غُلبوا تضرعوا إلى ربهم ، وأنابوا إليه ، وخضعوا له ، وانكسروا له ، وتابوا إليه ، وإذا غَلبوا أقاموا دينه وشعائره ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ، وجاهدوا عدوه ، ونصروا أولياءه . ومنها : أنهم لو كانوا دائما منصورين ، غالبين ، قاهرين ، لدخل معهم من من ليس قصده الدين ، ومتابعة الرسول، فإنه إما ينصاف إل من له الغلبة والعزة ، ولو كانوا مقهورين مغلوبين دائما لم

يدخل معهم أحد . فافتضت الحكمة الإلهية أن كانت لهم الدولة تارة ، وعليهم تارة . فيتميز بذلك بين من يريد الله ورسوله ، ومن ليس له مراد إلا الدنيا والجاه . ومنها : أنه سبحانه يحب من عباده تكميل عبوديتهم على السراء والضراء ، وفي حال العافية والبلاء ، وفى حال إدالتهم والإدالة عليهم فلله سبحانه عل العباد فى كلتا الحالين عبودية القلب بمقتضى تلك الحال . لا تحصل إلا ببها ، ولا يستقيم القلب بدونها ، كما لا تستقيم الأبدان إلا بالحر والبرد ، والجو

والعطش ، والتعب والنصب ، وأضدادها . فتلك المحن والبلايا شرط فى حصول الكمال الانسانى والاستقامة المطلوبة منه ، ووجود الملزوم بدون لازمه ممتنع .

ومنها : أن امتحانهم بإدالة عدوهم عليم يمحصهم ، ويخلصهم ويهذبهم . قال تعالى في جكمة إدالة الكفار على المؤمنين يوم أحد : (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين . إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الايام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين . وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين . ام حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين . ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون . وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين) آل عمران : ١٣٩ - 144فذكر سبحانه أنواعا من الحكم التى لأجلها أديل عليهم الكفار ، بعد أن ثبتهم وقواهم وبشرهم بأنهم الأعلون بما أعطوا من الإيمان ، وسلاهم بأنهم وإن مسهم القرح فى طاعته وفى طاعة رسوله فقد مس أعداءهم القرح فى عداوته وعداوة رسوله .

تم أخبرهم انه سبحانه بحكمته يجعل الأيام دولا بين الناس . فيصيب كلا منهم نصيبه منها . كالأرزاق والآجال . ثم أخبرهم

**انه فعل ذلك ليعلم المؤمنين منهم ، وهو سبحانه بكل شيء علم قبل كونه وبعد كونه ، ولكنه أراد أن يعلمهم موجودين مشاهدين فيعلم إيمانهم واقعا . ثم اخبر انه يحب ان يتخذ منهم شهداء ، فإن الشهادة درجة عالية عنده ، ومنزلة رفيعة لا تنال إلا بالقتل فى سبيله ، فلولا إدالة العدو لم تحصل درجة الشهادة التى هى من أحب الاشياء إليه ، وأنفعها للعبد . ثم أخبر سبحانه أنه يريد تمحيص المؤمنين ، أى تخليصهم من ذنوبهم بالتوبة والرجوع إليه واستغفاره من الذنوب التى أديل بها عليهم العدو ، وانه مع ذلك يريد أن يمحق الكافرين ببغيهم وطغيانهم ، وعدوانهم إذا انتصروا . ثم أنكر عليهم حسبانهم وظنهم دخول الجنة بغير جهاد**
**ولا صبر . وأن حكمته تأبى ذلك . فلا يدخلونها إلا بالجهاد والصبر ، ولو كانوا دائما منصورين غالبين لما جاهدهم أحد ولما ابتلوا بما يصبرون عليه من أذى أعدائهم . فهذا بعض حكمه في نصرة عدوهم عليهم ، وإدالته في بعض الأحيان .**

## الأصل التاسع

- أنه سبحانه وتعالى إنما خلق السموات والأرض وخلق الموت والحياة وزين الأرض بما عليها لابتلاء عباده وامتحانهم ، ليعلم من يريده ويريد ممن ما عنده ممن يريد الدنيا وزينتها
قال تعالى : (وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا) هود 7 وقال: ( إنا خلقنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا) الكهف ٧. وقال : (الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا) / الملك : ٢ . وقال تعالى : (ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون) الأنبياء : 35 . وقال تعالى : (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم) محمد 31 . وقال تعالى : (الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ)العنكبوت 1: 3 . فالناس إذا أرسل البهم الرسل بين أمرين ، إما أن يقول أحدهم آمنت ، او لا يؤمن ، بل يستمر على السيئات والكفر ، ولابد من امتحان هذا وهذا .
فأما من قال : امنت فلابد أن يمتحنه الرب ويبتليه ، ليتبين : هل هو صادق في قوله ، آمنت ، أو كاذب ؟ فإن كان كاذبا رجع عل عقبيه ، وفر من الامتحان ، كما يفر من عذاب الله ، وإن كان صادقا ثبت عل قوله ، ولم يزده الابتلاء الامتحان إلا إيمانا عل إيمانه : ( ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم الا إيمانا وتسليما) الأحزاب : ٢٢ ٠
وأما من لم يؤمن ، فإنه يمتحن في الآخرة بالعذاب ، ويفتن به ، وهى أعظم المحنتين ، هذا إن سلم من امتحانه بعذاب الدنيا ومصائبها ، وعقوبتها التى أوقعها الله بمن لم يتبع رسله

وعصاهم ، فلابد من المحنة فى هذه الدار وفى البرزخ ، وفي القيامة لكل أحد ، ولكن المؤمن أخف محنة وأسهل بلية . فإن الله يدفع عنه بالايمان . ويحمل عنه به ويرزقه من الصبر والثبات والرضى والتسليم ما يهون به عليه محنته . وأما الكافر والمنافق والفاجر فتشتد محنته وبليته وتدوم ، فمحنة المؤمن خفيفة منقطعة ، ومحنة الكافر والمنافق والفاجر شديدة متصلة . فلابد من حصول الألم والمحنة لكل نفس ، آمنت أو كفرت ، لكن المؤمن يحصل له الألم فى الدنيا ابتداء ، ثم تكون له عاقبة الدنيا والآخرة . والكافر والمنافق والفاجر ، تحصل له اللذة والمتعه ابتداء ، ثم يصير إلى الألم ، فلا يطمع أحد أن يخلص من المحنة والألم البتة بوضحه :

## الأصل العاشر

وهو أن الإنسان مذني بالطبع ، لابد له أن يعيش مع الناس ، والناس لهم إرادات وتصورات ، واعتقادات فيطلبون منه أن يوافقهم عليها فإن لم يوافقهم آذوه وعذبوه ، وإن وافقهم حصل له الأذى والعذاب من وجه آخر ، فلابد له من الناس ومخالطتهم ، ولا ينفك عن موافقتهم أو مخالفتهم . وفى الموافقة ألم وعذاب ، إذا كانت على باطل ، وفى المخالفة ألم وعذاب ، إذا لم يوافق أهواءهم واعتقاداتهم وإرادتهم ، ولا ريب أن ألم المخالفة لهم فى باطلهم أسهل وأيسر من الألم المترتب على موافقتهم واعتبر هذا بمن يطلبون منه الموافقة على ظلم أو فاحشة أو شهادة زور أو المعاونة على محرم . فإن لم يوافقهم آذوه وظلموه وعادوه ، ولكن له العاقبة والنصرة عليهم إن صبر واتقى وإن وافقهم فرارا من ألم المخالفة أعقبه ذلك من الألم أعظم مما فر منه ، والغالب أنهم يسلطون عليه ، فيناله الالم منهم أضعاف ما ناله من اللذة أولا

**بموافقتهم . فمعرفة هذا ومراعاته من أنفع ما للعبد ، فألم يسير يعقب لذة عظيمة دائمة أولى بالاحتمال من لذة يسيرة تعقب ألما عظيما دائما ، والتوفيق بيد الله .**

## الأصل الحادى عشر

**- أن البلاء الذى يصيب العبد فى الله لا يخرج عن أربعة أقسام . فانه إما أن يكون فى نفسه ، او في ماله ، أو فى عرضه ، او فى أهله ومن يحب . والذى فى نفسه قد يكون بتلفها تارة ، وبتألمها بدون التلف ، فهذا مجموع ما يبتلى به العبد فى الله . وأشد هذه الأقسام : المصيبة فى النفس . ومن المعلوم : أن الخلق كلهم يموتون ، وغاية هذا المؤمن أن يستشهد في الله ، وتلك أشرف الموتات وأسهلها ، فإنه لا يجد الشهيد من الألم إلا مثل ألم القرصة ، فليس فى قتل الشهيد مصيبة زائدة على ما هو معتاد لبنى ادم . فمن عد مصيبة هذا القتل أعظم من مصيبة الموت على**
**الفراش ، فهو جاهل ، بل موت الشهيد من أيسر الميتات وأفضلها ، وأعلاها . ولكن الفار يظن أنه بفراره يطول عمره ، فيتمتع بالعيش ، وقد أكذب الله سبحانه هذا الظن حيث  يقول : (قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا) الأحزاب : 16 . فأخبر الله أن الفرار من الموت بالشهادة لا ينفع ، فلا فائدة فيه ، وأنه لو نفع لم ينفع إلا قليلا ، إذ لابد له من الموت ، فيفوته بهذا القليل ما هو خير منه وأنفع : من حياة الشهيد ثم قال : (قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا) الأحزاب : ١٧ . فأخبر سبحانه أن العبد لا يعصمه أحد من الله ، إن أراد به سوءا غير الموت الذى فر منه ، فإنه فر من الموت لما كان يسوءه ، فأخبر الله سبحانه أنه لو أراد به سوءا غيره لم يعصمه أحد من الله ، وانه قد يفر مما يسوءه من القتل فى سبيل الله . فيقع فيما يسوءه مما هو أعظم منه .وإذا كن هدا فى مصيبة النفس ، فالأمر هكذا فى مصيبة المال والعرض والبدن ، فإن من بخل بماله أن ينفقه فى**

**سبيل الله تعالى وإعلاء كلمته سلبه الله إياه ، او قيض له إنفاقه فيما لا ينفعه دنيا ولا أخرى ، بل فيما يعود عليه بمضرته عاجلا وآجلا ، وإن حبسه وادخره منعه التمتع به ، ونقله إلى غيره فيكون له مهنؤه وعلى مخلفه وزره .. وكذلك من رفه بدنه وعرضه وآثر راحته على التعب لله وفى سبيله ، أتعبه الله سبحانه أضعاف ذلك فى غير سبيله ومرضاته ، وهذا أمر يعرفه الناس بالتجارب . قال أبو حازم : ( لما يلقي الذى لا يتقى الله من معالجة الخلق أعظم مما يلقى الذى يتقى الله من معالجة التقوى)[1] . واعتبر ذلك بحال إبليس . فإنه امتنع من السجود لآدم فرارا أن يخضع له ويذل ، وطلب إعزاز نفسه ، فصيره الله أذل الأذلين ، وجعله خادما لأهل الفسوق والفجور من ذريته ، فلم يرض بالسجود له ، ورضى أن يخدم هو وبنوه فساق ذريته . و كذلك عباد الأصنام . أنفوا أن يتبعوا رسولا من البشر وأن يعبدوا إلها واحدا سبحانه ، ورضوا أن يعبدوا الهة من الأحجار .وكذلك كل من امتنع أن يذل لله ، أو يبذل ما له في مرضاته ، أو يتعب نفسه وبدنه فى طاعته ، لابد أن يذل لمن لا يسوى ، ويبذل له ماله ويتعب نفسه وبدنه في طاعته ومرضاته ، عقوبة له ، كما قال بعض السلف : ( من امتنع أن يمشى مع أخيه لخطوات فى حاجته أمشاه الله تعالى أكثر منها فى غير طاعته ) .**

---

**(١) أخرجه أبو نعيم فى الحلية ( ٣/ ٢٤٥ ) .**